تجريد التوحيد المفيد

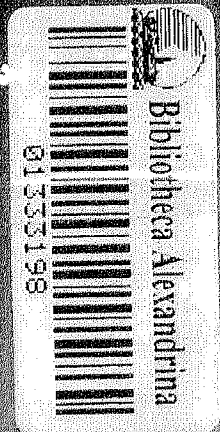
تأليف

الإمام تقى الدين أحمد بن على المقريزى

المتوفى سنة ٨٥٤ هـ

تحقيق وتعليق

حمد السايح   الدكتور / السيد الجميلى



تجريد التوحيد المفيد

تأليف

الإمام تقى الدين أحمد بن على المقريزى
المتوفى سنة ٨٥٤ هـ

تحقيق وتعليق

الدكتور/ أحمد السايح الدكتور/ السيد الجميلى

مركز الكتاب للنشر



مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
ت: ٢٩٠٨٢٠٣-٢٩٠٦٢٥٠-فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

[illegible]



مقدمة التحقيق

هذا هو كتاب (تجريد التوحيد) أو (تجريد التوحيد المفيد) كما ذكر مؤلفه الإمام تقى الدين أحمد بن المقريزى، الإمام العلامة رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ويتناول هذا السفر الممتع ـ على صغر حجمه ـ دقائق ولطائف غاية فى الأهمية، مدارها على التنبيه ولفت الأنظار إلى أهمية وخطورة التوحيد الخالص المحصن للمسلم.

والإسلام فى حقيقته قول وعمل، يزيد وينقص، يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا، ويمسى كافرا ويصبح مؤمنا على ماورد فى الحديث عن سيدنا رسول الله ﷺ.

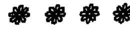
إن التوحيد الخالص غير المشوب هو طوق النجاة للمسلمين، وهو أن لايكون ممذوقا ولا مقدوحا فى سلامته.

قال شيخ الأئمة ابن قيم الجوزية: إن أهل المعاصى يخرجون جميعا من النار بالشفاعات وبعد فترات من الزمن تختلف طولا وقصرا بحسب الأعمال ولايبقى بعد ذلك أحدٌ فى النار على التأبيد لايخرج منها أبداً إلا الذين حبسهم القرآن، وهم الكفار، والمشركون. هذا مؤدى ما ذهب إليه.

وكل توحيد مشوب بالمدخولات أو مشفوع بما يتعارض مع صفائه وخلوصه يكون مردوداً ولا نفع منه ولا جدوى بل يكون وبالاً وهوانا على صاحبه، أعاذنا الله تعالى من ذلك بمنه وكرمه وبره وإحسانه.

إن بحث المقريزى عن التوحيد بهذه الصورة الدقيقة ليبرز لنا صورة الرجل العلمية الدقيقة التى تخفى على كثير من الناس، وإن هذا لخير دليل على إحاطته الموسوعية بعلم الفلسفة والعقيدة لما انطوى عليه بحثه من أمور يتعلق بهذه وتلك.

والمقريزى متمسك بالكتاب والسنة ولايند ولايجمح إلى آراء غريبة ولا قراءات شاذة، بل يستشهد بنصوص القرآن الكريم، وبأحاديث المعصوم ﷺ.



ولئن كان المقريزى قد اشتُهِر باعتباره مؤلفًا للخطط المقريزية إلا أن أحداً لم يعرف هذا الجانب الخصب والحيوى فى عمقه العقائدى، فهو لم يكن معدودا من المفسرين ولا من الفلاسفة، ولا من علماء الملل والنحل.. ولكن اشتهاره بالتاريخ وتبحره فيه كان تبريزاً متفرداً حجب بظلاله جوانب أخرى لاتقل أهمية عن التاريخ والجغرافيا.

ربما كانت هذه الآراء الجميلة التى سردها وعرضها علينا هى من قبيل تسجيل بعض الخواطر والانطباعات النفسية والذهنية، إذا لم يحتج أحد من المفسرين يأتى منها ولم يشر إليها بكونها معزوة ومنسوبة للمقريزى، لكن عزوها كان لمن سبقه من الأسلاف الذين نوهوا عنها قبله.

والله سبحانه وتعالى يجزى هذا المصنف عن عمله الطيب المقبول إن شاء الله خير المثوبة وأن يجعله نوراً وبرهانا فى الموقف يوم تطير القلوب، وتطير الصحف، وتطيش الحلوم، يوم لاينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل.

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رءوف رحيم.

والحمد لله رب العالمين

المحققان

المؤلف - رحمه الله -

هو الإمام أحمد بن على بن عبدالقادر، أبو العباسى الحسينى، العبيدى، تقى الدين المقريزى[١].

كان ـ رحمه الله ـ مؤرخا للديار المصرية، أصله من بعلبك، ولد ونشأ ومات فى القاهرة المحروسة.

كان مولده سنة ست وستين وسبعمائة للهجرة، الموافق سنة خمس وستين وثلاثمائة وألف للميلاد، واشتق اسمه المقريزى نسبة إلى حارة المقارزة (من حارات بعلبك فى ذلك الوقت المنصرم).

قال الإمام السخاوى عنه: كان منسوبًا لحارة فى بعلبك تعرف بحارة المقارزة[٢]. ونفس الكلام ذكره السيوطى[٣].

تولى المقريزى الإمام والخطابة مرات عديدة، كما عُينّ محتسبًا للقاهرة.

وقد كان عمدة للمؤرخين، واسع الباع، رحب الذراع حاز قصب السبق فى علوم الأوائل، لم يشق غباره، ولم ينسج أحد على منواله فى رصد الحوادث التاريخية وتخميص الحقائق الجغرافية والطبوغرافية فى عصره.

وقد قدم للمكتبة أسفارًا جامعة لاتزال فريدة فى أبوابها عمقا وخبرة ودراسة بعيدة المدى.

لقد نشأ هذا العملاق الفذ بالقاهرة، وشرب من فرات النيل القراح، وابترد بماء المحروسة السائغ فارتوى من نبع فيَّاض دافق، فتأصلت، فى طويته خصوبة الوادى السخية فألّف وصنف، ودرس وحقق وقدم التصانيف الشائقة الممتعة.

---

(١) ورد فى معجم المطبوعات (١٧٧٨): «سبط بن الصنائع البعلى الأصل، القاهرى المعروف بالمقريزى».
(٢) انظر الدر المسبوك (ص ٢١).
(٣) حسن المحاضرة (١/ ٢٦٦).

بدأ حياته حنفيًا مقيمًا على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان -رحمه الله- ثم استمر على هذا المذهب طرفًا وملاوة وحقبة طويلة من الزمن، بيد أنه (على الرغم من الانتشار المذهبى لفقه أبى حنيفة فى مصر وقتذاك) إلا أنه تحول عنه إلى مذهب الإمام الشافعى، وكأنه ضاق بالرأى ومذهب أهله، ولكن اختلاف الرأى لايمكن أن يكون فى إفساد الود بحال.

وقد اشتهر بالضبط والاتقان الذى تشهد به جملة مؤلفاته ومصنفاته الجامعة التى لاتزال حتى الآن بين ظهرانينا ينهل منها الصادر والوارد، لاتخفى على أحد من أهل العلم.

ولى الإمام المقريزى حسبة القاهرة من قبل الملك الظاهر برقوق بدلاً من شمس الدين محمد النجاشى، ثم نُحِّىَ وعزل بالقاضى بدر الدين العينتابى.. ثم ترقى فى درج الوظائف الدينية لما كان عليه من الورع والتقوى وعمق البصر، ونفاذ البصيرة.

عرض عليه فى أوائل الدولة الناصرية بسورية أن يكون قاضيا لدمشق، إلا أنه اعتذر عن عدم قبوله ذلك من غير تبرير للرفض على الراجح الصحيح.

كان يعيش حياة غريبة إذ كان منزويًا عن الحياة والأحياء فى كسر بيته، ملاذما للعبادة، قائما بشئونه واهتماماته العلمية فى التصنيف، وكأنه وجد فى هذا النشاط مندوحة عن مخالطة الناس، ومخامرتهم، فلم يشأ لأن يهدر طاقاته النفسية والوجدانية فيما لا طائل من ورائه، فلذلك رأى (وقد كان مصيبا حقا) بأن العلم هو خير مضنون به ومبذول فى سبيله من ثم أفرغ طاقاته الجبارة فى هذا المضمار.

لذلك ومن هذه المثابة كان إخلاصه وإبداعه وعطاؤه مضربا للأمثال، كما كان لورعه وتقواه منزلة ومكانة يشهد بها كل معاصريه وعارفيه.

اشتُهِرَ بالتاريخ حتى كان عمدة المؤرخين بل إمامًا لهم من غير منازع، فقد كان محقوقًا به أن يكون منظورًا إليه لكونه ملحوظ المكانة والدرجة ولورعه ورشده وتقواه.

قال عنه الشيخ الإمام الحافظ السخاوى (رحمه الله): «قرأت بخطه أن تصانيفه زادت على مئتى مجلد كبار، وأن شيوخه بلغت ستمائة نفس وكان حسن المذاكرة بالتاريخ، لكنه قليل المعرفة بالمتقدمين، ولذلك كثر له فيهم وقوع التحريف والسقط، وربما صَحَّفَ فى المتون، وأما فى المتأخرين فقد انفرد فى تراجمهم بما لايوافق عليه» أ هـ بتصرف.

ولئن كان السخاوى حافظًا متقنًا إلا أن حكمه على المقريزى لابد وأن يكون متحفظًا عليه، وذلك لأسباب لابد من تجليتها.

فإن السخاوى وهو عالم كبير مشهور لاينكر ذلك أحد إلا أنه كان مشهورًا بالاستطالة على أعلام عصره، والوقوع فى أعراضهم، والالتفات عن كثير من محاسنهم، والاجتهاد فى النيل منهم.

ولعل السيوطى ـ رحمه الله ـ وهو الموسوعى المعروف كان أول من اكتوى بناره، وتلظى فى أواده، إذ كان تلميذا للسخاوى، ثم انتهى الأمر بأن قنعه بالمنكرات، ورماه بالعظائم.

ولكن السخاوى يذكر جوانب طيبة مشرقة من الإمام المقريزى، وليس لمثله أن يكتم هذه الحسنات المنشورة لأنها لم تخف على أحد.

لكن المؤلم أن ينعى عليه، ويحمل عليه بغير مبرر حينا، وبمبررات واهية أحيانا كثيرة.

ثم إن التصحيفات أو التحريفات التى هى مدار التجريم ومناط التأثيم فى نظر السخاوى ليست دليلاً قاطعا على انحسار علمه بالمتقدمين، وليس سائغا ولامتصوراً ولامقبولاً أن يُرْمىَ إمامٌ وعالمٌ جهبذ ندب نحرير بهذه الفرية لوقوع بعد التصحيفات أو الأوهام فى بعض المواضيع المعدودة.

إن حلقة العلم سحيقة الأعماق بعيدة الأغوار وليس البشر معصومين من الزلل والخطأ والنسيان وما سُمِّى الإنسان إنسانا إلا لأنه ينسى.

لكن الإمام المقريزى كان ذا دربة عميقة، وبصر نافذ، و عزيمة ماضية، وقوة مؤثرة، وطاقة مبدعة بدت جلية واضحة فى محرراته الرائعة.

وقد توفى - رضى الله عنه وأرضاه فى القاهرة سنة خمس وستين وثلاثمائة وألف للهجرة، الموافق سنة إحدى وأربعين وأربعمائة وألف للميلاد.

لم تنطو بوفاته صفحة بذله وعطائه، بل بقيت حتى يومنا هذا وستبقى حتى الأبد الأبيد لانطوائها على خير عميم.

لقد كان حبه لمصر وأهلها، وللنيل وصفتيه، لهذا الوادى الأخضر الرحب الفسيح كان حبا عميقا وعمليا بدا فى تصنيفه الرائع المسمى (بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار).

هذا السفر الشائق الممتع ينطوى على حب جارف غير محدود، فسيح رحب لانهاية له إذا يحتوى بين دفتيه أخبار إقليم مصر والنيل وذكر القاهرة المعزية، وما يتعلق بها من قريب أو بعيد.

ومن أجمل أقواله التى أوردها فى مقدمة هذا الكتاب:

«فليسبل الناظر فى هذا التأليف على مؤلفه ذيل ستره إن مرت به هفوة، وليغض (أى البصر وهو من الإغضاء أى التجاوز) تجاوزًا وصفحًا إن وقف منه على كبوة أو نبوة» أ هـ بتصرف.

هذا القول البديع الرائع يعتبر دليلا صادقًا، وشاهدًا بليغًا على علم الرجل وتواضعه وأريحيته التى هى من خلال العلماء، وخصالهم المحمودة.

هذا هو الإمام تقى الدين المقريزى، وهذه حياته وهذا أثر من آثاره الخالدة نعمد إلى نشره، فنسأل الله تعالى العصمة من الزلل والتسديد والتمكين، وهو وحده المستعان المرتجى وعليه التكلان.

المحققان

مؤلفات المقريزى

١- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

وهو كتاب جليل القدر، نفيس القيمة يتعرض لتاريخ القاهرة والنيل بصفة خاصة، وإقليم مصر تفصيلا، بصفة عامة.

هذا الكتاب هو المعروف بخطط المقريزى، وهو أشهر كتاب فى موضوعه.

وقد طُبعَ جزؤه الأول بمطبعة بولاق سنة سبعين ومائتين وألف للهجرة المشرفة، كما طبع جزؤه الرابع بمطبعة النيل سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وألف.

كما طبع منه فى كتاب الأنيس المفيد الذى نشره سلوستردى (ساسى) نبذا ونتفًا كثيرة، ثم ترجمها للغة الفرنسية.

وترجم منه إلى الفرنسية القسم الجغرافى الأستاذان بوريان وكارانوفا، وطبع منه أجزاء فى المعهد الشرقى. وكان ذلك فى السنوات ١٨٩٣ و١٨٩٥ و١٩٠٦ و ١٩٢٠.

٢- ألفاظ الحنفاء بأخبار الأئمة والخلفاء[١]

وهو كتاب يسرد تاريخ القرامطة، ويذكر أخبارهم وما كان من أمر الدولة الفاطمية.

نشر هذا السفر القيم الأستاذ هوجو بونز (توبنجن) سنة إحدى عشرة وتسعمائة وألف، وليبسيك سنة تسع وتسعمائة وألف.

---

(١) يسميه حاجى خليفة «إتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين»

٣- الأوزان والمكاييل (الاكيال) الشرعية

طبع هذا الكتاب بعناية وملاحظة الأستاذ تيكسن ـ روستك ـ بألمانيا سنة ثمانمائة وألف.

٤- الإلمام بأخبار من بالحبشة من ملوك الإسلام

نشر هذا السفر باعتناء الأستاذ «رنك» بتافيا منذ زهاء ثلاثمائة سنة تقريبا، ثم طبعته مطبعة التأليف بمصر سنة خمس وتسعين وثمانمائة وألف، ومطبعة الموسوعات.

٥- البيان والإعراب عما فى أرض مصر من الأعراب

كان الفراغ من تأليفه سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، باعتناء وستنفلد وطبع جزؤه الثالث (غوتا) سنة سبع وأربعين وثمانمائة وألف.

٦- كتاب التنازع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم

طبع هذا الكتاب ونشره ومعه مقدمة باللغة الألمانية لأول مرة (فيما نعتقد) الأستاذ چيرار دوس فوس بليدن سنة ثمان وثمانين وثمانمائة وألف.

وهذا الكتاب ينطوى على دراسة جادة صريحة لما كان بين بنى أمية وبنى هاشم من أحداث ووقائع.

جدير بالذكر أن هذا الكتاب كان من آخر ما حقق أستاذنا المؤرخ البحاثة المرحوم الدكتور حسين مؤنس، بعد رحلة علمية شائقة.

٧- السلوك لمعرفة دول الملوك

يحتوى بين دفتيه ذكر الحوادث التى وقعت حتى يوم وفاة المؤلف، قال فيه إنه أكمل وأتم كتاب الجواهر (جواهر الإسقاط) وكتاب إتعاظ الحنفاء، وهما يشتملان على ذكر من ملك مصر من الأمراء والخلفاء، وما كان فى أيامهم من الحوادث منذ فتحت إلى أن زال الفاطميون، أراد أن يصل ذلك إلى من

ملك مصر بعدهم من الأكراد والأتراك والجراكسة. لم يطبع هذا الكتاب، لكن نشر منه نبذة برعاية العلامة المستشرق (دى ساسى) فى كتاب «الأنيس المفيد والطالب المستفيد»، وترجم منه إلى الفرنسية الأستاذ كاتريمار قسما آخر سماه: تاريخ السلاطين المماليك، وقد طبع فى فرنسا (باريس) سنة سبع وثلاثين وثمانمائة وألف، فى جزئين[١].

(١) مصادر ومراجع الترجمة.

حسن المحاضرة للسيوطى (١/ ٣٢١)، شذرات الذهب لابن العماد (٧/ ٢٥٥)، والخطط التوفيقية لعلى مبارك، (٩/ ٦٩)، كشف الظنون عن «أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة فى مواضع شتى متفرقة منه، والبدر الطالع للشوكانى (١/ ٧٩ ـ ٨١)، والضوء اللامع للسخاوى (٢/ ٢١ ـ ٢٥)، والمنهل الصافى لابن تغرى بردى (١/ ٣٩٤ ـ ٤٠٤)، ومحمد عبدالله عنان فى كتاب مصر الإسلامية، ومعجم المطبوعات ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (٢/ ١١, ١٢).

تجريد التوحيد المفيد

للإمام تقى الدين أحمد بن على المقريزى
المتوفى سنة ٨٥٤ هـ

تحقيق وتعليق

د. أحمد السايح   د. السيد الجميلى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. والعاقبة للمتقين وصلى الله على نبينا محمد خاتم النبيين. وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد

فهذا الكتاب: جم الفوائد، بديع الفرائد.. ينتفع به من أراد الله، والدار الآخرة.

سميته: «تجريد التوحيد المفيد».

والله أسأل العون على العمل به بمنه.

اعلم: أن الله سبحانه هو رب كل شيء، ومالكه، وإلهه.. فالرب مصدر ربَّ يَرُبُّ ربًّا.. فهو رب.

فمعنى قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: رابُّ العالمين. فإن الرب سبحانه وتعالى. هو الخالق، الموجد لعباده، القائم بتربيتهم، وإصلاحهم، المتكفل بصلاحهم. من خلق، ورزق، وعافية، وإصلاح دين ودنيا.

والألوهية: كون العباد يتخذونه سبحانه محبوبا مألوها، ويفردونه بالحب، والخوف، والرجاء، والإخبات، والتوبة، والنذر، والطاعة، والطلب، والتوكل.. ونحو هذه الأشياء.

فإن التوحيد حقيقته أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الإلتفات إلى الأسباب، والوسائط.. فلا ترى الخير، والشر إلا منه تعالى.. وهذا المقام يثمر التوكل، وترك شكاية الخلق، وترك لومهم، والرضا عن الله تعالى والتسليم لحكمه.

واذا عرفت ذلك فاعلم: أن الربوبية منه تعالى لعباده، والتأله من عباده له سبحانه.

كما أن الرحمة هى الوصلة بينهم وبينه عز وجل.

[توحيد الله]

وأعلم: أن أنفس الأعمال وأجلها قدراً توحيد الله تعالى. غير أن التوحيد له قشران:

الأول: أن تقول بلسانك: لا إله إلا الله[1]. ويسمى هذا القول توحيداً.

وهو مناقض للتثليث الذى تعتقده النصارى. وهذا التوحيد يصدر أيضا من المنافق الذى يخالف سره جهره.

والقشر الثانى: أن لايكون فى القلب مخالفة، ولا إنكار[2]. لمفهوم هذا القول.. بل يشتمل القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به. وهذا هو توحيد عامة الناس[3].

ولباب التوحيد أن يرى الأمور كلها لله تعالى. ثم يقطع الالتفات إلى الوسائط، وأن يعبده سبحانه عبادة يفرده بها، ولايعبد غيره.

ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى، فكل من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[4].

واذا تأملت عرفت أن عابد الصنم. لم يعبده. إنما عبد هواه. وهو ميل نفسه إلى دين أبائه، فيتبع ذلك الميل.

وميل النفس إلى المألوفات أحد المعانى التى يعبر عنها بالهوى ويخرج عن هذا التوحيد: السخط على الخلق، والإلتفات إليهم. فإن من يرى الكل من

---

(١) فالإنسان يدخل الإسلام بالتلفظ بالشهادتين فيصير فى التو مسلما.

(٢) إن وجود الإنكار القلبى يهدم القول المجرد باللسان، إذ لابد أن يكون التلفظ متواطئاً ومشفوعاً بالإقرار القلبى. ولاعبرة بالقول الذى لايواطئه التوافق القلبى.

وإذا تعارض القول اللفظى مع الإقرار بالقلب كانت العبرة بما وقر فى القلب وليس عكس هذا صحيحاً ولا مقبولاً.

(٣) أى توحيد أغمار الناس وسوادهم.

(٤) الجاثية: ٢٣.

الله. كيف يسخط على غيره، أو يأمل سواه. وهذا التوحيد مقام الصديقين.

ولاريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون. بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم، وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله.

وانما أنكروا توحيد الألوهية[1]، والمحبة. كما قد حكى الله تعالى عنهم فى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[2]

فلما سووا غيره به فى هذا التوحيد كانوا مشركين. كما قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[3].

وقد علَّم الله سبحانه وتعالى عباده كيفية مباينة الشرك فى توحيد الالهية. وأنه تعالى حقيق بإفراده وليا، وحكمًا، وربا.

فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾[4].

وقال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾[5].

وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾[6].

فلا ولى، ولا حكم، ولا ربَّ إلا الله. الذى من عدل به غيره، فقد أشرك فى ألوهيته، ولو وحد ربوبيته.. فتوحيد الربوبية هو الذى اجتمعت فيه الخلائق. مؤمنها، وكافرها.

وتوحيد الألوهية مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين.

ولهذا كانت كلمة الإسلام: «لا إله إلا الله».

---

(١) إنكار توحيد الالوهية يقدح فى سلامة وخلوص التوحيد بل يجعله كلا توحيد.
(٢) البقرة: ١٦٥.
(٣) الأنعام: ١.
(٤) الأنعام: ١٤.
(٥) الأنعام: ١١٤.
(٦) الأنعام: ١٦٤.

ولو قال: لا رب إلا الله. أجزأه عند المحققين.

فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد.

ولهذا كان أصل «الله» الإله. كما هو قول سيبويه. وهو الصحيح. وهو قول جمهور أصحابه إلا من شذ منهم.

وبهذا الاعتبار الذى قررنا به «الإله» وأنه المحبوب لاجتماع صفات الكمال فيه. كان الله هو الاسم الجامع لجميع معانى الأسماء الحسنى، والصفات العليا. . وهو الذى ينكره المشركون.

ويحتج الرب سبحانه وتعالى عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته. كما قال الله تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾[1].

وكلما ذكر تعالى من آياته جملة من الجمل. قال عقبها «أإله مع الله» فأبان سبحانه وتعالى بذلك أن المشركين إنما كانوا يتوقفون فى إثبات توحيد الألوهية. لا الربوبية.

على أن منهم من أشرك فى الربوبية كما يأتى بعد ذلك إن شاء الله تعالى.

وبالجملة فهو تعالى يحتج على منكرى الألوهية بإثباتهم الربوبية. والملك هو الآمر الناهى الذى لايخلق خلقا بمقتضى ربوبيته ويتركهم سدىً معطلين لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون.

فإن الملك هو الأمر،الناهى، المعطى، المانع، الضار، النافع، المثيب، المعاقب.

---

(١) النمل: ٥٩، ٦٠.

انظر تفسير القرطبى (١٣/ ٢٢١)، والبحر المحيط لأبى حيان (٧/ ٩٢, ٩٣).

ولذلك جاءت الاستعاذة فى سورة الناس، وسورة الفلق بالأسماء الحسنى الثلاثة: الرب، والملك، والإله.

فإنه لما قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾[1]. كان فيه إثبات أنه خالقهم، وفاطرهم.

فبقى أن يقال: لما خلقهم هل كلفهم، وأمرهم، ونهاهم؟.

قيل: نعم..

فجاء ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ فأثبت الخلق، والأمر ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[2].

فلما قيل ذلك قيل: فإذا كان ربًّا موجدا، وملكا مكلفا، فهل يحب ويرغب إليه، ويكون التوجه إليه غاية الخلق والأمر، قيل ﴿ إِلَهِ النَّاسِ﴾ أى مألوههم ومحبوبهم الذى لايتوجه العبد المخلوق المكلف العابد إلا له.

فجاءت الألوهية خاتمة، وغاية. وما قبلها كالتوطئة لها.. وهاتان السورتان أعظم عَوْذة فى القرآن. وجاءت الاستعاذة بهما وقت الحاجة إلى ذلك.

وهو حين سحر النبى ﷺ، وخيل إليه أنه يفعل الشىء ﷺ وما فعله.

وأقام على ذلك أربعين يوما كما فى الصحيح.

وكانت عقد السحر إحدى عشرة عقدة. فأنزل الله المعوذتين إحدى عشرة آية. فانحلت بكل آية عقدة، وتعلقت الاستعاذة فى أوائل القرآن باسمه الإله. وهو المعبود وحده لاجتماع صفات الكمال فيه، ومناجاة العبد لهذا الإله الكامل، ذى الأسماء الحسنى، والصفات العليا، المرغوب إليه، فى أن يعيد عبده الذى يناجيه بكلامه من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربه.

ثم استحب التعليق باسم الإله فى جميع المواطن الذى فيها: ﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم﴾.

---

(١) الناس: ١.

انظر القرطبى (٢٠/ ٢٦٠) وما بعدها، والبحر المحيط (٨/ ٥٣١، ٥٣٢).

(٢) الأعراف: ٥٤.

لأن اسم الله تعالى هو الغاية للأسماء[1].

ولهذا كان كل اسم بعده لايتعرف إلا به.. فتقول: الله هو السلام المؤمن المهيمن.

فالجلالة تعرِّف غيرها، وغيرها لا يعرفها.

والذين أشركوا به تعالى فى الربوبية منهم من أثبت معه خالقا آخر. وإن لم يقولوا إنه مكافئ له. وهم المشركون ومن ضاهاهم من القدرية.

وربوبيته سبحانه للعالم. الربوبية الكاملة المطلقة الشاملة. تبطل أقوالهم. لأنها تقتضى ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات، والصفات، والحركات، والأفعال.

وحقيقة قول القدرية المجوسية: أنه تعالى ليس ربا لأفعال الحيوان، ولا تتناولها ربوبيته.

إذ كيف يتناول مالا يدخل تحت قدرته، ومشيئته، وخلقه.

(١) انظر تفسير الفخر الرازى الكبير، المجلد الأول فى تفسير أم الكتاب، وهى السبع المثانى والقرآن العظيم.

شرك الأمم

وشرك الأمم كله نوعان، شرك فى الألوهية. وشرك فى الربوبية.

فالشرك فى الألوهية والعبادة. هو الغالب على أهل الإشراك. وهو شرك عباد الأصنام، وعباد الملائكة، وعباد الجن. وعباد المشايخ، والصالحين. الأحياء والأموات. الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(١)، ويشفعوا لنا عنده، وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم. قرب وكرامة.

كما هو المعهود فى الدنيا من حصول الكرامة والزلفى(٢). لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته.

والكتب الإلهية كلها من أولها إلى أخرها. تبطل هذا المذهب، وترده وتقبح أهله، وتنص على أنهم أعداء الله تعالى.

وجميع الرسل صلوات الله عليهم متفقون على ذلك من أولهم إلى أخرهم.

وما أهلك الله تعالى (من أهلك) من الأمم إلا بسبب هذا الشرك ومن أجله.

وأصله الشرك فى محبة الله. قال تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(٣).

فأخبر سبحانه وتعالى. أنه من أحب مع الله شيئا غيره كما يحبه، فقد اتخذ نداً من دونه.

وهذا على أصح القولين فى الأية. أنهم يحبونهم كما يحبون الله.

وهذا هو العدل المذكور فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾(٤).

---

(١) الزمر: ٣.

(٢) الزلفى: القربى.

(٣) البقرة: ١٦٥.

(٤) الأنعام: ١.

والمعنى على أصح القولين: أنهم يعدلون به غيره فى العبادة، فيسوون بينه وبين غيره فى الحب والعبادة.

وكذلك قول المشركين فى النار لأصنامهم ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[1].

ومعلوم قطعاً أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله فى كونه ربهم وخالقهم.

فإنهم كانوا كما أخبرالله عنهم مقرين بأن الله تعالى وحده هو ربهم وخالقهم.

وأن الأرض ومن فيها لله وحده، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم.

وأنه سبحانه وتعالى هو الذى بيده ملكوت كل شيء. وهو يجير ولايجار عليه.

وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى فى المحبة والعبادة.

فمن أحب غيرالله تعالى، وخافه، ورجاه، وذل له. كما يحب الله تعالى، ويخافه، ويرجوه. فهذا هو الشرك الذى لايغفره الله. فكيف بمن كان غير الله آثر عنده، وأحب إليه، وأخوف عنده. وهو فى مرضاته أشد سعيًا منه فى مرضاة الله.

فإذا كان المسوى بين الله وبين غيره فى ذلك مشركًا. فما الظن بهذا. فعياذا بالله من أن ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام. كإنسلاخ الحية من قشرها. وهو يظن أنه مسلم موحد فهذا أحد أنواع الشرك.

والأدلة الدالة على أنه تعالى يجب أن يكون وحده هو المألوه يبطل هذا الشرك، ويدحض حجج أهله.

---

(١) الشعراء: ٩٧، ٩٨.

وهى أكثر من أن يحيط بها إلا الله. بل كل ما خلقه الله تعالى. فهو آية شاهدة بتوحيده.

وكذلك كل ما أمر به. فخلقه وأمره، وما فطر عليه عباده وركبه فيهم من القوى. شاهد بأن الله الذى لا إله إلا هو. وأن كل معبود سواه باطل، وأنه هو الحق المبين. تقدس وتعالى.

وواعجبا كيف يعصى الإله — أم كيف يجحده الجاحدُ
ولله فى كل تحريكة — وتسكينة أبدًا شاهدُ
وفى كل شىء له آيةٌ — تدل على أنه الواحدُ

والنوع الثانى من الشرك به تعالى فى الربوبية كشرك من جعل معه خالقاً أخر كالمجوس وغيرهم الذين يقولون: بأن للعالم ربين:

أحدهما: خالق الخير. يقولون له بلسان الفارسية: «يزدان».

والأخر: خالق الشر. ويقولون له بلسانهم «اهرمن».

وكالفلاسفة ومن تبعهم الذين يقولون بأنه لم يصدر عنه إلا واحد بسيط.

وأن مصدر المخلوقات كلها عن العقول والنفوس. وأن مصدر هذا العالم عن العقل الفعال.

فهو رب كل ما تحته ومدبره.

وهذا شر من شرك عباد الأصنام، والمجوس، والنصارى. وهو أخبث شرك فى العالم. إذ يتضمن من التعطيل، وجحد الألوهية، والربوبية، واستناد الخلق إلى غيره سبحانه وتعالى مما لم يتضمنه شرك أمة من الأمم.

وشرك القدرية مختصر من هذا، وباب يدخل منه إليه.. ولهذا شبههم الصحابة رضى الله عنهم بالمجوس. كما ثبت عن ابن عمر، وابن عباس رضى الله عنهم.

وقد روى أهل السنن فيهم ذلك مرفوعا أنهم مجوس هذه الأمة.

وكثيرا ما يجتمع الشركان فى العبد، وينفرد أحدهما عن الأخر، والقرآن الكريم بل الكتب المنزلة من عند الله تعالى كلها مصرحة بالرد على أهل هذا الإشراك لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[1]. فإنه ينفى شرك المحبة والإلهية.

وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنه ينفى شرك الخلق والربوبية فتضمنت هذه الآية تجريد التوحيد لرب العالمين من العبادة، وأنه لايجوز إشراك غيره معه. لا فى الأفعال، ولا فى الألفاظ، ولا فى الإرادات.

فالشرك به فى الأفعال كالسجود لغيره سبحانه وتعالى، والطواف بغير بيته المحرم، وحلق الرأس عبودية، وخضوعًا لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود. الذى هو يمينه فى الأرض، وتقبيل القبور واستلامها، والسجود لها.. وقد لعن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد.

فكيف من اتخذ القبور أوثانًا تعد من دون الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم. أنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا.

وفيه عنه أيضًا: «إن من شرار الناس مَنْ تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد».

وفيه أيضًا عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد. فإنى أنهاكم عن ذلك»..

وفى مسند الإمام أحمد، وصحيح ابن حبان عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لعن الله زوَّارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»..

---

(١) سورة الفاتحة.

وقال: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

وقال: «إن من كان قبلكم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور. أولئك شرار الخلق عند الله»[(١)].

والناس فى هذا الباب. أعنى زيارة القبور على ثلاثة أقسام:

- قوم يزورون الموتى فيدعون لهم. وهذه الزيارة الشرعية.

- وقوم يزورونهم يدعون بهم. فهؤلاء هم المشركون فى الألوهية، والمحبة.

- وقوم يزورنهم فيدعونهم أنفسهم. وقد قال النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد» وهؤلاء هم المشركون فى الربوبية.

وقد حمى النبى ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حتى نهى عن الصلاة فى هذين الوقتين.

لكونه ذريعة إلى التشبيه بعبَّاد الشمس الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين.

وسدًا للذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس. وأما السجود لغير الله فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا ينبغى لأحد أن يسجد لأحد إلا لله».

ولاينبغى فى كلام الله ورسوله. إنما يستعمل للذى فى غاية الامتناع..

كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ...﴾[(٤)].

---

(١) انظر كتاب تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد للشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألبانى

(٢) مريم: ٩٢.

(٣) يس: ٦٩.

(٤) الشعراء: ٢١٠، ٢١١.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾(١).

ومن الشرك بالله تعالى المباين لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الشرك به فى اللفظ كالحلف بغيره. كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه صلى الله عليه وسلم. أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك» صححه الحاكم وابن حبان.

قال ابن حبان: أخبرنا الحسن، وسفيان، ثنا عبدالله بن عمر الجعفى، ثنا عبدالرحمن بن سليمان، عن الحسن بن عبدالله النخعى، عن سعيد بن عبيدة. قال: كنت عند ابن عمر رضى الله عنه. فحلف رجل بالكعبة. فقال ابن عمر رضى الله عنه: ويحك لاتفعل. فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف بغير الله فقد أشرك»(٢).

ومن الإشراك قول القائل لأحد من الناس: ما شاء الله وشئت.

كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال له رجل: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلتنى لله نداً. قل ما شاء الله وحده».

هذا مع أن الله تعالى قد أثبت للعبد مشيئة. كقوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾(٣).

فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك. وأنا فى حسب الله وحسبك. ومالى إلا الله وأنت. وهذا من الله ومنك. وهذا من بركات الله وبركاتك. والله لى فى السماء وأنت لى فى الأرض.

وزن بين هذه الألفاظ الصادرة من غالب الناس اليوم وبين ما نهى عنه من شاء الله وشئت.

ثم انظر أيها أفحش.. يتبين لك أن قائلها أولى بالبعد من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

---

(١) الفرقان: ١٨.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند والترمذى والحاكم عن ابن عمر، وحسنة السيوطى فى الصغير (٢/٥٢٤/٨٦٤٢).

(٣) التكوير: ٢٨.

وبالجواب من النبى ﷺ لقائل تلك الكلمات.. وأنه إذا كان قد جعل رسول الله ﷺ نداً. فهذا قد جعل من لايدانيه لله نداً.

وبالجملة. فالعبادة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هى السجود، والتوكل، والإنابة، والتقوى، والخشية، والتوبة، والنذور، والحلف، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحلق الرأس، خضوعا وتعبدا، والدعاء.. كل ذلك محض حق الله تعالى.

وفى مسند الإمام أحمد: أن رجلا أتى به النبى صلى الله عليه وآله وسلم. قد أذنب ذنبا. فلما وقف بين يديه. قال: اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد.

فقال ﷺ: «عرف الحق لأهله».. وأخرجه الحاكم من حديث الحسن عن الأسود بن سريع. وقال حديث صحيح.. وأما الشرك فى الإرادات والنيات فذلك البحر الذى لا ساحل له، وقلّ من ينجو منه.

فمن نوى بعمله غير وجه الله تعالى. فلم يقم بحقيقة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإن إياك نعبد هى الحنيفية ملة إبراهيم التى أمر الله بها عباده كلهم. ولايقبل من أحد غيرها، وهى حقيقة الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(١).

فاستمسك بهذا الأصل ورد ما أخرجه المبتدعة والمشركون إليه، تتحقق معنى الكلمة الإلهية.

فإن قبل المشرك إنما قصد تعظيم جناب الله تعالى. وأنه لعظمته لا ينبغى الدخول عليه إلا بالوسائط، والشفعاء. كحال الملوك. فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية. وإنما قصد تعظيمه.

وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وإنما أعبد هذه الوسائط لتقربنى إليه، وتدخل بى عليه. فهو الغاية، وهذه وسائل. فلم كان هذا القدر موجبا لسخط الله تعالى

---

(١) آل عمران: ٨٥.

وغضبه، ومخلداً فى النار، وموجبا لسفك دماء أصحابه، واستباحة حريمهم، وأموالهم.

وهل يجوز فى العقل أن يشرع الله تعالى لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط. فيكون تحريم هذا إنما استفيد بالشرع فقط أم ذلك قبيح فى الشرع.

والعقل يمنع أن تأتى به شريعة من الشرائع.

الشرك شركان

وما السر فى كونه لايغفر من بين الذنوب. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1].

قلنا: الشرك شركان:

شرك يتعلق بذات المعبود، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله. وشرك فى عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه وتعالى لاشريك له فى ذاته، ولا فى صفاته.

وأما الشرك الثانى: فهو الذى فرغنا من الكلام فيه وأشرنا إليه الآن، وسنشبع الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

أما الشرك الأول. فهو نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل. وهو أقبح أنواع الشرك. كشرك فرعون فى قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

وقال: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾[3].

والشرك والتعطيل متلازمان. فكل مشرك معطل، وكل معطل مشرك. لكن الشرك لايستلزم أصل التعطيل. بل قد يكون المشرك مقرًّا بالخالق سبحانه وتعالى وصفاته، ولكنه معطله حق التوحيد.

وأصل الشرك وقاعدته التى يرجع إليها. هو التعطيل. وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: تعطيل المصنوع عن صانعه.

الثانى: تعطيل الصانع عن كماله الثابت له.

---

(١) النساء: ٤٨.

(٢) الشعراء: ٢٣.

(٣) غافر: ٣٦.

الثالث: تعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد.

ومن هذا شرك أهل الوحدة.

ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأن الحوادث بأسرها مستندة إلى أسباب ووسائط. اقتضت إيجادها.. ويسمونها: العقول والنفوس.

ومنه شرك معطلة الأسماء والصفات كالجهمية، والقرامطة، وغلاة المعتزلة.

النوع الثاني: شرك التمثيل. وهو شرك من جعل معه إلهًا آخر كالنصارى في المسيح، واليهود في عزير، والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة.

وشرك القدرية المجوسية مختصر منه.

وهؤلاء أكثر مشركي العالم. وهم طوائف جمة:

منهم من يعبد أجزاء أرضية. ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده أكبر الآلهة.

ومنهم من يزعم أن إلهه من جملة الآلهة.

ومنهم من يزعم أنه إذا خصه بعبادته، والتبتل إليه أقبل عليه، واعتنى به.

ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقربه من الأعلى الفوقاني، والفوقاني يقربه إلى من هو فوقه. حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله سبحانه وتعالى.

فتارة تكثر الوسائط، وتارة تقل.

حقيقة الشرك

فإذا عرفت هذه الطوائف، وعرفت اشتداد نكير الرسول ﷺ على من أشرك به تعالى فى الأفعال، والأقوال، والإرادات - كما تقدم ذكره - انفتح لك باب الجواب على السؤال. فنقول: اعلم: أن حقيقة الشرك تشبيه الخالق بالمخلوق، وتشبيه المخلوق بالخالق.

أما الخالق. فإن المشرك شبه المخلوق بالخالق فى خصائص الألوهية. وهى التفرد بملك الضر، والنفع، والعطاء، والمنع.

فمن علق ذلك بمخلوق. فقد شبهه بالخالق تعالى، وسوى بين التراب، ورب الأرباب، فأى فجور أعظم من هذا.

وأعلم أن من خصائص الألوهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه. وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده عقلا، وشرعا، وفطرة.

فمن جعل ذلك لغيره فقد شبه الغير، بمن لاشبيه له.. ولشدة قبحه، وتضمنه غاية الظلم. أخبر من كتب على نفسه الرحمة أنه لايغفره أبدًا.

ومن خصائص الألوهية: العبودية التى لاتقوم إلا على ساق الحب، والذل... فمن أعطاهما لغيره. فقد شبهه بالله سبحانه وتعالى، فى خالص حقه.

وقبح هذا مستقر فى العقول والفطر. لكن لما غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق واجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، كما روى عن الله. أعرف الخلق به وبخلقه عموا عن قبح الشرك حتى ظنوه حسنا.

ومن خصائص الألوهية: السجود. فمن سجد لغيره فقد شبهه به.

ومنها التوكل. فمن توكل على غيره فقد شبهه به.

ومنها التوبة. فمن تاب لغيره فقد شبهه به.

ومنها الحلف باسمه. فمن حلف بغيره فقد شبهه به.

ومنها الذبح له. فمن ذبح لغيره فقد شبهه به.

ومنها حلق الرأس. إلى غير ذلك.

هذا فى جانب التشبيه.

وأما فى جانب التشبه. فمن تعاظم، وتكبر، ودع الناس إلى إطرائه، ورجائه، ومخافته. فقد تشبه بالله، ونازعه فى ربوبيته.

وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان، ويجعله كالذر تحت أقدام خلقه.

وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «يقول الله عز وجل: العظمة إزارى، والكبرياء ردائى. فمن نازعنى فى واحد منهما عذبته».

وإذا كان المصور الذى يصنع الصور بيده. من أشد الناس عذابا يوم القيامة. لتشبهه بالله، فى مجرد الصنعة. فما الظن بالمشبه بالله فى الربوبية والألوهية.

كما قال ﷺ: «أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون. يقال لهم أحيوا ما خلقتم»[1].

وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «يقول الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة».

فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منهما.

وكذلك من تشبه به تعالى فى الاسم الذى لاينبغى إلا له. كملك الملوك، وحاكم الحكام، وقاضى القضاه، ونحوه.

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد وابن ماجة والنسائى عن عائشة، وصححه بنحوه السيوطى فى الصغير (١/ ٦٩/ ١٠٥٢).

وقد ثبت فى الصحيح، عن النبى ﷺ. أنه قال: «إن أخنع الأسماء عند الله رجل تسمى بشاهان شاه، ملك الملوك، لا مالك إلا الله».

وفى لفظ: «أغيظ رجل عند الله رجل تسمى ملك الأملاك». فالتشبيه، والتشبه. هو حقيقة الشرك.

ولذلك كان من ظن أنه إذا تقرب إلى غيره بعبادة ما يقربه ذلك الغير إليه تعالى. فإنه يخطئ لكونه شبهه به، وأخذ ما لا ينبغى أن يكون إلا له.

فالشرك منعه سبحانه وتعالى حقه. فهذا قبيح عقلاً وشرعاً. ولذلك لم يشرع، ولم يغفر لفاعله.

ظن السوء

وأعلم أن الذى ظن أن الرب سبحانه وتعالى. لايسمع له أو لا يستجيب له إلا بواسطة تطلعه على ذلك، أو تسأل ذلك منه، فقد ظن بالله ظن السوء.

فإنه إن ظن أنه لا يعلم، أو لا يسمع. إلا بإعلان غيره له، وإسماعه.. فذلك نفى لعلم الله، وسمعه، وكمال إدراكه وكفى بذلك ذنبا.

وإن ظن أنه يسمع ويرى. ولكن يحتاج إلى من يلينه، ويعطف عليه. فقد أساء الظن بأفضال ربه، وبره، وإحسانه، وسعة جوده.

وبالجمل فأعظم الذنوب عند الله تعالى إساءة الظن.. ولهذا يتوعدهم فى كتابه على إساءة الظن به أعظم وعيد. كما قال تعالى: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[1].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[2].

أى فما ظنكم أن يجازيكم إذا عبدتم معه غيره، وظننتم أنه يحتاج فى الاطلاع على ضرورات عباده لمن يكون بابًا للحوائج إليه ونحو ذلك.

وهذا بخلاف الملوك فإنهم محتاجون إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم، وعجزهم، وضعفهم، وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين.

فأما من لايشغله سمع عن سمع، وسبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرحمة. فما تصنع الوسائط عنده.

فمن اتخذ واسطة بينه وبين الله تعالى فقد ظن به أقبح الظن، ومستحيل أن يشرعه لعباده. بل ذلك يمتنع فى العقول والفطر.. واعلم أن الخضوع

(١) الفتح: ٦.
(٢) الصافات: ٨٧.

والتأله الذى يجعله العبد لتلك الوسائط قبيح فى نفسه ـ كما قررناه ـ لاسيما إذا كان المجعول له ذلك عبدًا للملك العظيم، الرحيم، القريب، المجيب. ومملوكا له كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[١].

أى إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكا شريكه فى رزقه فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء. فيما أنا منفرد به وهو الألوهية التى لاتنبغى لغيرى، ولاتصلح لسواى.

فمن زعم ذلك فما قدرنى حق قدرى، ولا عظمنى حق تعظيمى. وبالجملة فما قدر الله حق قدره مَنْ عبد معه، من ظن أنه يوصل إليه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾[٢].

إلى أن قال: و﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٤].

فما قدر القوى العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل.

وأعلم أنك إذا تأملت جميع طوائف الضلال، والبدع. وجدت أصل ضلالهم راجعًا إلى شيئين:

أحدهما: الظن بالله ظن السوء.

وثانيهما: ولم يقدروا الرب حق قدره.

* فلم يقدره حق قدره مَنْ ظن أنه لم يرسل رسولاً، ولا أنزل كتابًا. بل ترك الخلق سدًى، وخلقهم عبثا.

---

(١) الروم: ٢٨.
(٢) الحج. ٧٣.
(٣) الحج: ٧٤.
(٤) الزمر: ٦٧.

* ولا قدره حق قدره من نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعالها عباده، من طاعتهم، ومعاصيهم، وأخرجهما عن خلقه، وقدرته.

* ولا قدر الله حق قدره أضداد هؤلاء الذين قالوا إنه يعاقب عبده على ما لم يفعله. بل يعاقبه على فعله ـ سبحانه وتعالى.

وإذا استحال فى العقول أن يجبر السيد عبده على فعل ثم يعاقبه عليه. فكيف يصدر هذا من أعدل العادلين.

وقول هؤلاء شر من أشباه المجوس القدرية الأذلين.

* ولا قدره حق قدره من نفى رحمته، ورضاه، ومحبته، وغضبه، وحكمته مطلقا.

وحقيقة فعله لم يجعل له فعلاً اختياريًا. بل أفعاله منفصلة عنه.

* ولا قدره حق قدره. من جعل له صاحبة وولدًا، وجعله يحل فى مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود.

* ولا قدره حق قدره. من قال إنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته، وجعل فيهم الملك، ووضع أولياء رسوله وأهل بيته.

وهذا يتضمن غاية القدح فى الرب ـ تعالى الله عن قول الرافضة.

وهذا مشتق من قول اليهود والنصارى فى قول رب العالمين إنه أرسل ملكا ظالما.

فادعى النبوة، وكذب على الله، ومكث زمنا طويلاً. يقول أمرنى بكذا، ونهانى عن كذا.

ويستبيح دماء أبناء الله وأحبائه. والرب يظهره ويؤيده، ويقيم الأدلة، والمعجزات على صدقه، ويقبل بقلوب الخلق، وأجسادهم إليه، ويقيم دولته على الظهور والزيادة ويذل أعداءه أكثر من ثمانمائة عام.

فوازن بين قول هؤلاء، وقول إخوانهم من الرافضة. تجد القولين سواء.

* ولا قدروا الله حق قدره من زعم أنه لايحيي الموتى، ولايبعث من فى القبور. ليبين لعباده الذى كانوا فيه يختلفون، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وبالجملة فهذا باب واسع. والمقصود أن كل من عبد مع الله غيره فإنما عبد شيطانا.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾(١) فما عبد أحد أحدًا من بنى أدم. كائنا من كان إلا وقد وقعت عبادته للشيطان. فيستمتع العابد بالمعبود فى حصول غرضه. ويستمتع المعبود بالعابد فى تعظيمه له، واشراكه مع الله تعالى.

وذلك غاية رضى الشيطان. ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ﴾(٢). . أى من إغوائهم، وضلالهم.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾(٣) .

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذى لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه، وأنه موجب للخلود فى العذاب العظيم، وأنه ليس تحريمه قبحه بمجرد النهى عنه فقط. بل يستحيل على الله سبحانه وتعالى أن يشرع لعباده عبادة إله غيره. كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله، ونعوت جلاله.

---

(١) يس: ٦٠

(٢) الانعام: ١٢٨.

(٣) الانعام: ١٢٨.

عبادة الله تعالى

واعلم أن الناس فى عبادة الله تعالى، والاستعانة به أقسام:

* أجلها وأفضلها أهل العبادة، والاستعانة بالله عليها.

فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها نهاية مقصودهم.

ولهذا كان أفضل ما يسأل الرب تعالى الإعانة على مرضاته. وهو الذى علمه النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل. فقال: «يا معاذ والله إنى أحبك. فلا تدع أن تقول فى دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك». فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته.

* ويقابل هؤلاء القسم الثانى: المعرضون عن عبادته، والاستعانة به. فلا عبادة بهم، ولا استعانة. بل إن سأله تعالى أحدهم، واستعان به. فعلى حظوظه وشهواته. والله سبحانه وتعالى يسأله من فى السموات والأرض، ويسأله أولياؤه، وأعداؤه. فيمد هؤلاء وهؤلاء.

وأبغض خلق الله إبليس. ومع هذا أجاب سؤاله، وقضى حاجته، ومتعه بها.

ولكن لما لم تكن عونا على مرضاته كانت زيادة فى شقوته وبعده.

وهكذا كل من سأله تعالى، واستعان به على ما لم يكن عونًا له على طاعته. كان سؤاله مبعدًا له عن الله.

فليتدبر العاقل هذا وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه. بل قد يسأله عبده الحاجة فيقضيها له. وفيها هلاكه. ويكون منعه منها حماية له، وصيانة. والمعصوم من عصمه الله والإنسان على نفسه بصيرة.

وعلامة هذا أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يجهل حقيقة الأمر، إذا رآه سبحانه وتعالى يقضي حوائج غيره يسيء ظنه به تعالى، وقلبه محشو بذلك وهو لا يشعر.

وأمارة ذلك حمله على الأقدار، وعتابه في الباطن لها.

ولقد كشف الله تعالى هذا المعنى غاية الكشف في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلاَّ﴾[1]. أي ليس كل من أعطيته، ونعمته، وخولته. فقد أكرمته. وما ذاك لكرامته عليّ.

ولكنه ابتلاء مني وامتحان له. أيشكرني فأعطيه فوق ذلك. أم يكفرني فأسلبه إياه، وأحوله عنه لغيره.

وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه.

فذاك من هو عليّ. ولكنه ابتلاء، وامتحان مني له. أيصبر فأعطيه أضعاف ما فاته. أم يسخط فيكون حظه السخط. وبالجملة فأخبر تعالى: أن الإكرام، والإهانة لا يدوران على المال، وسعة الرزق، وتقديره.

فإنه سبحانه وتعالى يوسع على الكافر. لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لهوانه عليه.

وإنما يكرم سبحانه وتعالى من يكرم من عباده بأن يوفقه لمعرفته، ومحبته، وعبادته، واستعانته.

فغاية سعادة الأبد في عبادة الله، والاستعانة به عليها.

* القسم الثالث: من له نوع عبادة، بلا استعانة وهؤلاء نوعان:

أحدهما: أهل القدر. القائلون بأنه سبحانه وتعالى، قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف.

---

(١) الفجر: ١٥، ١٦، ١٧.

وأنه لم يبق فى مقدوره إعانة على الفعل. فإنه قد أعانه بخلق الآلات، وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسول، وتمكينه من الفعل. فلم يبق بعدها إعانة مقدورة يسأل إياها.

وهؤلاء مخذولون موكلون إلى أنفسهم، مسدود عليهم طريقة الاستعانة والتوحيد.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: الإيمان بالقدر نظام التوحيد. فمن آمن بالله، وكذب بقدره. نقض توحيده[1].

النوع الثانى: من لهم عبادة وأوراد. ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة. لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وأنها بدون المقدور كالموت الذى لاتأثير له. بل كالعدم الذى لا وجود له. وأن القدر كالروح المحرك لها. والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ بصائرهم من السبب إلى المسبب، ومن الألة إلى الفاعل. فقلَّ نصيبهم من الاستعانة.

وهؤلاء لهم نصيب من التصرف بحسب استعانتهم، وتوكلهم من الضعف، والخذلان، بحسب قلة استعانتهم، وتوكلهم، ونصيب من الضعف والخذلان بحسب قلة استعانتهم، وتوكلهم.

ولو توكل العبد على الله حق توكله فى إزالة جبل[2] عن مكانه لأزاله.

فإن قيل: ما حقيقة الاستعانة عملاً؟

قلنا: هى التى يعبر عنها بالتوكل.. وهى حالة للقلب تنشأ عن معرفة الله تعالى، وتفرده بالخلق، والأمر والتدبير، والضر، والنفع، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

---

(١) والمسلمون مأمورون بالإيمان بالقدر لكنهم منهيون عن الاحتجاج به لأن فى الاحتجاج بالقدر تخليطا وإفسادا وتخريبا لامزيد عليه، إذ بالاحتجاج بالقدر يستطيع الإنسان المكلف أن يجد فى تبريرات القدر والاحتجاج به مندوحة وفسحة تسوغ له هدم الشريعة من أساسها لذلك كان ذلك منهيا عنه تماما.

(٢) ذلك لأن توكل العبد على مولاه توكلاً كاملاً يكون سراً فى كمال وتمام قوته وصلابته، وهذا هو سر قوة المؤمن التى تأتى على كل باطل لجوج.

فتوجب اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وثقة به. فتصير نسبة العبد إليه تعالى كنسبة الطفل إلى أبويه. فيما ينوبه من رغبته ورهبته.

فلو دهمه ما عسى أن يدهمه من الآفات. لم يلتجئ إلى غيرهما فإن كان العبد مع هذا الاعتماد من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة. ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1]. أى كافيه.

القسم الرابع: من له استعانة بلا عبادة. وتلك حالة من شهد بتفرد الله بالضر والنفع، ولم يدر بما يحبه ويرضاه. فتوكل عليه فى حظوظه. فأسعفه بها.

وهذا لا عاقبة له سواء كانت أموالاً أو رياسات، أو جاهًا عند الخلق، أو نحو ذلك. فذلك حظه من دنياه وآخرته.

---

(١) الطلاق: ٢، ٣.

التحقيق من العبادة

واعلم أن العبد لا يكون متحققا بعبادة الله تعالى. إلا بأصلين:

أحدهما: متابعة الرسول ﷺ.

والثانى: إخلاص العبودية.

والناس فى هذين الأصلين على أربعة أقسام:

* أهل الإخلاص والمتابعة. فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم، ومنعهم، وإعطاؤهم، وحبهم، وبغضهم. كل ذلك لله تعالى.

لا يريدون من العباد جزاءً ولا شكورًا. عدوا الناس كأصحاب القبور. لايملكون ضرًا، ولانفعًا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا.

فإنه لا يعامل أحدًا من الخلق إلا لجهله بالله، وجهله بالخلق. والإخلاص هو العمل الذى لايقبل الله من عاملٍ عملاً صوابًا عاريًا منه. وهو الذى ألزم عباده به إلى الموت.

قال الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1].

وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[2].

وأحسن العمل: أخلصه، وأصوبه. فالخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على وفق سنة رسول الله ﷺ.

وهذا هو العمل الحسن المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[3].

وهو العمل الصالح فى قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾[4].

(١) هود: ٧.
(٢) الكهف: ٧.
(٣) النساء: ١٢٥.
(٤) الكهف: ١١٠.

وهو الذى أمر به النبى ﷺ. فى قوله: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»(١).

وكل عمل بلا متابعة. فإنه لايزيد عامله إلا بعدًا من الله تعالى. فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالأهواء والآراء.

* الضرب الثانى: من لا إخلاص له، ولا متابعة له. وهؤلاء شرار الخلق. وهم المتزينون بأعمال الخير، يراؤون بها الناس. وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المتنسبين إلى الفقه، والعلم، والفقر، والعبادة.

فإنهم يرتكبون البدع، والضلال، والرياء، والسمعة، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

وفى أضراب هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢).

* الضرب الثالث: من هو مخلص فى أعماله. لكنها على غير متابعة الأمر. كجهال العباد، والمنتسبين إلى الزهد، والفقر، وكل من عبدالله على غير مراده.

والشأن ليس فى عبادة الله فقط. بل فى عبادة الله كما أراد الله.

ومنهم من يمكث فى خلواته تاركا للجمعة. ويرى ذلك قربة، ويرى مواصلة صوم النهار، والقيام بالليل قربة، وأن صيام يوم الفطر قربة، وأمثال ذلك.

* الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الأمر. لكنها لغير الله تعالى. كطاعات المرائين، وكالرجل يقاتل رياء، وسمعه، وحمية، وشجاعة، وللمغنم، ويحج ليقال، ويقرأ ليقال، ويعلم، ويؤلف ليقال.

---

(١) أى كل عمل ليس مسنونا ومستقيما على السنة يكون مردودا غير مقبول.
(٢) آل عمران: ١٨٨.

فهذه أعمال صالحة. لكنها غير مقبولة. قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾[1].

فلم يؤمر الناس إلا بالعبادة على المتابعة والإخلاص فيها.

والقائم بهما هم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

(١) البينة. ٥.

انظر حاشية الصاوى على الجلالين (٤/ ٣٤٣)، والتسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ٢٩١).

أفضل العبادة

ثم أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم فى أفضل العبادة، وأنفعها، وأحقها بالإيثار، والتخصيص. أربعة طرق. وهم فى ذلك أربعة أصناف:

* الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات، وأفضلها: أشقها على النفوس، وأصعبها.

قالوا لأنه أبعد الأشياء من هواها. وهو حقيقة التعبد، والأجر على قدر المشقة.

ورووا حديثا ليس له أصل: «أفضل الأعمال أحمزها»(١). أى أصعبها وأشقها.

وهؤلاء هم أرباب المجاهدات، والجور على النفوس.

قالوا إنما تستقيم النفوس بذلك. إذ طبعها الكسل، والمهاونة، والإخلاد إلى الراحة. فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال، وتحمل المشاق.

* الصنف الثانى: قالوا أفضل العبادات وأنفعها: التجرد والزهد فى الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، وإطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث لما هو منها.

ثم هؤلاء قسمان:

* فعوامهم ظنوا أن هذا غاية فشمروا إليه، وعملوا عليه. وقالوا هو أفضل من درجة العلم والعبادة، ورأوا الزهد فى الدنيا غاية كل عبادة، ورأسها.

* وخواصهم رأوا هذا مقصودًا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله تعالى، والاستغراق فى محبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته.

---

(١) ليس صحيحا.

فرأوا أفضل العبادات دوام ذكره بالقلب واللسان.

ثم هؤلاء قسمان:

* فالعارفون إذا جاء الأمر والنهى بادروا إليه، ولو فرقهم وأذهب جمعهم.

* والمنحرفين منهم يقولون: المقصود من القلب جمعيته. فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفتوا إليه. ويقولون:

يطالب بالأوراد من كان غافلاً

فكيف بقلب كل أوقاته ورد

ثم هؤلاء أيضا قسمان:

* منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته.

* ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل، ويعلم العلم النافع لجمعيته.

والحق أن الجمعية حظ القلب: وإجابة داعى الله حق الرب فمن آثر حق نفسه على حق ربه. فليس من العباد فى شىء.

* الصنف الثالث: رأوا أن أفضل العبادات ما كان فيه نفع متعد. فرأوه أفضل من النفع القاصر.

فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس، وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالجاه، والمال، والنفع لقوله ﷺ: «الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله». .

قالوا وعمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفاع متعد إلى الغير. فأين أحدهما من الأخر.

ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.

وقد قال ﷺ لعلى: «لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير من حمر النعم».

وقال: «من دعى إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَنْ تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا»(١).

وقال: «إن الله وملائكته يصلون على معلمى الناس الخير».

وقال: «إن العالم يستغفر له مَنْ فى السموات ومَنْ فى الأرض حتى الحيتان فى البحر والنملة فى جحرها»(٢).

قالوا وصاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لاينقطع عمله. ما دام نفعه الذى تسبب فيه.

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق، وهدايتهم، ونفعهم فى معاشهم، ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع. ولهذا أنكر النبى ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع والتعبد، وترك مخالطة الناس.

ورأى هؤلاء أن التفرغ لنفع الخلق أفضل من الجمعية على الله بدون ذلك. قالوا ومن ذلك العلم والتعليم، ونحو هذه الأمور الفاضلة.

* الصنف الرابع: قالوا أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب سبحانه وتعالى، وشغل كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته.

فأفضل العبادات فى وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل الأمر إلى ترك الأوراد. من صلاة الليل، وصيام النهار. بل من ترك إتمام صلاة الفرض كما فى حالة الأمن.

والأفضل فى وقت حضور الضيف: القيام بحقه والاشتغال به.

والأفضل فى وقت السحر: الاشتغال بالصلاة، والقرآن، والذكر، والدعاء.

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد فى المسند عن أبى هريرة وصححه السيوطى فى الجامع الصغير (٢/ ٥٢٥/ ٨٦٦٣)

(٢) من حديث معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ.

والأفضل فى وقت الأذان: ترك ما هو فيه من الأوراد، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل فى أوقات الصلوات الخمس: الجد والاجتهاد فى إيقاعها على أكمل الوجوه والمبادرة إليها فى أول الوقت، والخروج إلى المسجد وإن بعد.

والأفضل فى أوقات ضرورة المحتاج: المبادرة إلى مساعدته بالجاه، والمال، والبدن.

والأفضل فى السفر: مساعدة المحتاج، وإعانة الرفقة، وإيثار ذلك على الأولاد والخلوة.

والأفضل فى وقت قراءة القرآن: جمعية القلب، والهمة على تدبره، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل فى وقت الوقوف بعرفة: الاجتهاد فى التضرع، والدعاء، والذكر.

والأفضل فى أيام عشر ذى الحجة: الإكثار من التعبد لاسيما التكبير، والتهليل، والتحميد وهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل فى العشرة الأواخر من رمضان: لزوم المساجد والخلوة فيها، مع الإعتكاف، والإعراض عن مخالطة الناس، والإشتغال بهم. حتى أنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم. وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء.

والأفضل فى وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته وحضور جنازته، وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل فى وقت نزول النوازل، وإيذاء الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك لهم.

والمؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أو إيذائهم أفضل من المؤمن الذى لايخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم.

وخلطتهم فى الخير أفضل من عزلتهم فيه، وعزلتهم فى الشر أفضل من خلطتهم فيه.

فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله وقلله. فخلطتهم خير من اعتزالهم. وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق. والأصناف التى قبلهم أهل التعبد المقيد.

فمتى خرج أحدهم عن الفرع الذى تعلق به من العبادة، وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص ونزل عن عبادته.

فهو يعبد الله تعالى على وجه واحد. وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض فى تعبد بعينه، يؤثره على غيره. بل غرضه تتبع مرضات الله تعالى.

إن رأيت العلماء رأيته معهم. وكذلك فى الذاكرين، والمتصدقين. وأرباب الجمعية، وعكوف القلب على الله.

فهذا هو الغذاء الجامع للسائر إلى الله فى كل طريق، والوافد عليه مع كل فريق.

واستحضر ههنا حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وقول النبى ﷺ بحضوره: «هل منكم أحد أطعم اليوم مسكينا؟».

قال أبو بكر: أنا.

قال: «هل منكم أحد أصبح اليوم صائما؟».

قال: أبو بكر: أنا.

قال: «هل منكم أحد عاد اليوم مريضا؟».

قال أبو بكر: أنا.

قال: «هل منكم أحد اتبع اليوم جنازة؟».

قال أبو بكر: أنا..» الحديث.

هذا الحديث روى من طريق عبدالغنى بن أبى عقيل. حدثنا نعيم بن سالم عن أنس بن مالك رضى الله عنه. قال: كان رسول الله جالسًا فى جماعة من أصحابه.

فقال: «من صام اليوم؟». قال أبو بكر: أنا.

قال: «من تصدق اليوم؟». قال أبو بكر: أنا.

قال: «من عاد اليوم مريضا؟». قال أبو بكر: أنا.

قال: «من شهد اليوم جنازة؟». قال أبو بكر: أنا.

قال: «وجبت لك». يعنى الجنة.

ونعيم بن سالم وان تكلم فيه. لكن تابعه سلمة بن وردان وله أصل صحيح، من حديث مالك عن محمد بن شهاب عن حميد بن عبدالرحمن ابن عوف، عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين فى سبيل الله نودى فى الجنة يا عبد الله هذا خير.

فمن كان من أهل الصلاة نودى من باب الصلاة.

ومن كان من أهل الجهاد نودى من باب الجهاد.

ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان».

فقال أبو بكر رضى الله عنه: يارسول الله. ما على من يدعى من هذه الأبواب كلها من ضرورة.

فهل يدعى أحد من هذه الأبواب كلها؟

قال: «نعم وأرجو أن تكون منهم»..

هكذا رواه عن مالك موصولا مسندا عن يحيى بن يحيى ومعن ابن عيسى، وعبدالله بن المبارك.

ورواه يحيى بن بكير، وعبدالله بن يوسف، عن مالك عن ابن شهاب عن حميد مرسلاً.

وليس هو عند القعنبى لا مرسلاً ولا مسنداً.

ومعنى قوله: «من أنفق زوجين». يعنى شيئين من نوع واحد نحو درهمين أو دينارين أو فرسين أو قميصين.

وكذلك من صلى ركعتين، أو مشى فى سبيل الله تعالى خطوتين أو صام يومين ونحو ذلك.

وإنما أراد والله أعلم أقل التكرار، وأقل وجوه المداومة على العمل من أعمال البر. لأن الإثنين أقل الجمع.

فهذا كالغيث أين وقع نفع صحب الله بلا خلق، وصحب الخلق بلا نفس.

إذا كان مع الله عزل الخلائق من البين، وتخلى عنهم.

واذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط، وتخلى عنها.

فما أغربه بين الناس، وما أشد وحشته منهم. وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته، وسكونه إليه.

منفعة العبادة

واعلم أن للناس فى منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرقًا أربعة. وهم فى ذلك أربعة أصناف:

* الصنف الأول: نفاة الحكم والتعليل الذين يردون الأمر إلى نفس المشيئة، وصرف الإرادة.

فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر من غير أن يكون سببًا فى معاش ولا معاد. ولاسببا لنجاة.

وإنما القيام بها لمجرد الأمر، ومحض المشيئة. كما قالوا فى الخلق لم يخلق لغاية، ولا لعلة هى المقصودة به، ولا لحكمة تعود إليه منه.

وليس فى المخلوق أسباب تكون مقتضيات لمسبباتها، وليس فى النار سبب للإحراق، ولا فى الماء قوة الإغراق، ولا التبريد وهكذا الأمر عندهم سواء. لافرق بين الخلق والأمر، ولا فرق فى نفس الأمر بين المأمور والمحظور.

ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا، ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور صفة تقتضى حسنه، ولا بالمنهى عنه صفة تقتضى قبحه.

ولهذا الأصل لوازم فاسدة، وفروع كثيرة. وهؤلاء غالبهم لايجدون حلاوة العبادة، ولا لذتها، ولا يتنعمون بها.. ولهذا يسمون الصلاة والصيام، والحج، والتوحيد، والإخلاص، ونحو ذلك تكاليف. أى كلفوا بها.

ولو سمى مدعى محبة ملك الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفا لم يعد محبا له. وأول من صدرت عنه هذه المقالة الجعد بن درهم.

* الصنف الثانى: القدرية النفاة الذين يثبتون نوعًا من الحكمة والتعليل. لايقوم بالرب، ولا يرجع إليه. بل يرجع لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته.

فعندهم أن العبادات شرعت أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء الأجير أجره.

قالوا ولهذا يجعلها سبحانه وتعالى عوضًا كقوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١).

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣).

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٤).

وفى الصحيح: «إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها».

قالوا: وقد سماها جزاءًا، وأجرًا، وثوابًا. لأنه شىء يثوب إلى العامل من عمله أى يرجع إليه.

قالوا ويدل عليه الموازنة. فلولا تعلق الثواب بالأعمال عوضًا عليها لم يكن للموازنة معنى.

وهاتان الطائفتان متقابلتان. فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء ألبتة. وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره فى الطاعة، وينعِّم من أفنى عمره فى مخالفته، وكلاهما سواء بالنسبة إليه. والكل راجع إلى محض المشيئة.

والقدرية أوجبت عليه سبحانه وتعالى رعاية المصالح، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال.

وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله. فيه تنقيص باحتمال منه الصدقة عليه بلا ثمن.

---

(١) الأعراف: ٤٣

(٢) النمل: ٩٠.

(٣) النحل: ٣٢.

(٤) الزمر: ١٠.

فجعلوا تفضله سبحانه وتعالى على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد، وإعطائه ما يعطيه أجرة على عمله. أحب إلى العبد من أن يعطيه فضلا منه بلا عمل. ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا فى الجزاء ألبتة. والطائفتان منحرفتان عن الصراط المستقيم.

وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثوابت:

والأعمال الصالحات من توفيق الله وفضله، وليست قدرًا لجزائه وثوابه. بل غايتها إذا وقعت على أكمل الوجوه. أن تكون شكرًا على أحد الأجزاء القليلة من نعمه سبحانه وتعالى.

فلو عذب أهل سمواته، وأهل أرضه. لعذبهم وهو غير ظالم. ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

مع قوله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله»[2].

تجد الآية تدل على أن الجنان بالأعمال، والحديث ينفى دخول الجنة بالأعمال.

ولا تنافى بينهما لأن توارد النفى والإثبات ليس على محل واحد. فالمنفى باء الثمنية، واستحقاق الجنة بمجرد الأعمال ردًا على القدرية المجوسية التى زعمت أن الفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكدير المنة.

والباء المثبتة التى وردت فى القرآن هى باء السببية ردًا على القدرية الجبرية الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال وجزائها.

ولاهى أسباب لها. وإنما غايتها أن تكون أمارة.

والسنة النبوية هى أن عموم مشيئة الله، وقدرته لاتنافى ربط الأسباب بالمسببات، وارتباطها بها.

---

(١) الأعراف: ٤٣.

(٢) وهذا الحديث ثابت فى مسلم.

وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعًا من الحق. فإنها ارتكبت لأجله نوعًا من الباطل بل أنواعًا. فهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه.

* الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة رياضة النفوس، واستعدادها لفيض العلوم والمعارف عليها، وخروج قواها من قوى النفس السَّبُعية والبهيمية.

فلو عطلت العبادة لالتحقت بنفوس السباع والبهائم. فالعبادة تخرجها إلى مشابهة العقول. فتصير قابلة لانتقاش صور المعارف فيها. وهذا يقوله طائفتان:

إحداهما: من يقرب إلى الإسلام والشرائع من الفلاسفة القائلين بقدم العالم، وعدم الفاعل المختار.

والطائفة الثانية: من تفلسف من صوفية الإسلام، ويقرب إلى الفلاسفة. فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس للمعارف العقلية، ومخالفة العوائد.

ثم من هؤلاء من لايوجب العبادة إلا بهذا المعنى. فإذا حصل لها ذلك بقى متحيراً فى لفظ أوراده، والاشتغال بالوارد منها.

ومنهم من يوجب القيام بالأوراد، وعدم الإخلال بها. وهم صنفان أيضا:

أحداهما: من يقول بوجوبها حفظا للقانون، وضبطا للناموس.

والآخرون: يوجبونها حفظا للوارد، وخوفًا من تدرج النفس بمفارقتها إلى حالها الأولى من البهيمية.

فهذه نهاية أقدامهم فى حكمة العبادة، وما شرعت لأجله، ولا تجد فى كتب المتكلمين على طريق السلوك غير طريق من هذه الطرق الثلاث أو مجموعها.

* والصنف الرابع: هم القائلون بالجمع بين الخلق والأمر، والقدر والسبب. فعندهم أن سر العبادة وغايتها مبنى على معرفة حقيقة الألوهية.

ومعنى كونه سبحانه وتعالى إلهًا: أن العبادة موجب الألوهية، وأثرها، ومقتضاها. وارتباطها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والإعطاء بالجود.

فعندهم من قام بمعرفتها على نحو الذى فسرناها به لغة وشرعًا مصدرًا وموردًا استقام له معرفة حكمة العبادات وغايتها به. وعلم أنها هى الغاية التى خلقت لها العباد، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وخلقت الجنة والنار.

وقد صرح سبحانه وتعالى بذلك فى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

فالعبادة هى التي ما وجدت الخلائق كلها إلا لأجلها. كما قال تعالى ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[2]. أى مهملاً.

قال الشافعى رحمه الله: لا يؤمر ولا ينهى.

وقال غيره: لايثاب ولا يعاقب.

وهما تفسيران صحيحان فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهى. والأمر والنهى هو طلب العبادة وإرادتها..

وحقيقة العبادة امتثالها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾[3].

---

(١) الذاريات: ٥٦.
العبادة هنا هى التوحيد وليست العبادة البدنية كما يرى المؤلف رحمه الله ـ وقد أقر هذا كثير من المفسرين انظر قوله تعالى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ الزخرف: ٨١. أى الموحدين راجع الطبرى (٢٧/٢٨) وانظر القرطبى (١٧/٥٥).

(٢) القيامة: ٣٦

(٣) آل عمران. ١٩١.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[1].

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[2].

فأخبر الله تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق. المتضمن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه.

فإذا كانت السموات والأرض إنما خلقتا لهذا وهو غاية الخلق. فكيف يقال إنه لاغاية له، ولا حكمة مقصودة.

أو أن ذلك بمجرد استئجار العمال حتى لايتكدر عليهم الثواب بالمنة أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية، وارتياضها لمخالفة العوائد.

(١) الحجر: ٨٥.
(٢) الجاثية: ٢٢.

[أصل العبادة]

وإذا تأمل اللبيب الفرق بين هذه الأقوال وبين مادل عليه صريح الوحى. علم أن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع له، والإنقياد لأمره.

فأصل العبادة محبة الله. بل إفراده تعالى بالمحبة. فلا يحب معه سواه. وإنما يحب ما يحبه لأجله، وفيه كما يحب أنبياءه، ورسله، وملائكته.

لأن محبتهم من تمام محبته. وليست كمحبة من اتخذ من دونه أندادًا يحبهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هى حقيقة عبوديته وسرها. فهى إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه.

فعند اتباع الأمر والنهى تتبين حقيقة العبودية والمحبة.

ولهذا جعل سبحانه وتعالى أتباع رسوله ﷺ علمًا، وشاهدًا لها. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(١).

فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبتهم لله تعالى، وشرطًا لمحبة الله لهم.

ووجود المشروط بدون تحقيق شرطه ممتنع. فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة للرسول.

ولا يكفى ذلك حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما. فهو الإشراك الذى لا يغفره الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٢).

---

(١) آل عمران ٣١.

(٢) التوبة: ٢٤ .

وكل من قدم قول غير الله على قول الله، أوحكم به، أو حاكم إليه. بس ممن أحبه.

لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد، أو حكمه، أو طاعته، على له ظنا منه أنه لا يأمر، ولا يحكم، ولا يقول، إلا ما قال الرسول ﷺ. طيعه، ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله كذلك. فهذا معذور إذا لم يقدر على بر ذلك.

وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول ﷺ، وعرف أن غير من اتبعه لى به مطلقا، أو فى بعض الأمور كمسألة معينة، ولم يلتفت إلى قول سول ﷺ ولا إلى من هو أولى به. فهذا يخاف عليه.

وكل ما يتعلل به من عدم العلم، أو عدم الفهم، أو عدم إعطاء آلة الفقه الدين، أو الاحتجاج بالأشباه والنظائر، أو بأن ذلك المتقدم كان أعلم منى اده ﷺ. فهذه كلها لا تفيد.

هذا مع الاقرار بجواز الخطأ على غير المعصوم. إلا أن ينازع فى هذه ناعدة. فتسقط مكالمته.

وهذا هو داخل تحت الوعيد. فإن استحل مع ذلك ثلب من خالفه، رض عرضه، ودينه بلسانه، وانتقل من هذا إلى عقوبته، أو السعى فى اه. فهو من الظلمة المعتدين ونواب المفسدين.

قواعد العبادة

واعلم أن العبادة أربع قواعد. وهى:

التحقيق بما يحب الله ورسوله ويرضاه.

وقيام ذلك بالقلب، واللسان، والجوارح.

فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع. فأصحاب العبادة حقا هم أصحابها.

فقول القلب هو اعتقاد ما أخبر الله تعالى عن نفسه، وأخبر رسوله عن ربه: من أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وملائكته، ولقائه، وما أشبه ذلك.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعاء إليه، والذب عنه، وتبين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره تعالى، وتبليغ أمره.

وعمل القلب كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة، والخوف، والرجاء، والإخلاص، والصبر على أوامره، ونواهيه، وإقراره والرضا به، وله، وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والإخبات إليه، والطمأنينة، ونحو ذلك. من أعمال القلوب التى فرضها أكد من فرض أعمال الجوارح، ومستحبها إلى الله تعالى أحب من مستحب أعمال الجوارح.

وأما أعمال الجوارح فكالصلاة، والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

فقول العبد فى صلواته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلتزام أحكام هذه الأربعة، واقرار بها.

وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ طلب الإعانة عليها، والتوفيق لها.

وقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ متضمن للأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله تعالى.

والله الموفق بمنه، وكرمه . .

والحمد لله وحده. وصلى الله على من لانبى بعده، وعلى آله، وصحبه، ووارثيه، وحزبه.

تم الكتاب

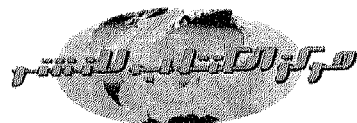
والحمد لله أولاً وآخراً..

المحتويات

رقم الإيداع ٩٧/٤٤٦٦

الترقيم الدولى .I.S.B.N

977-294-020-5


مركز الكتاب للنشر